المراة فى الشرق والغرب من خلال فكر اقبال

(فى ذكراه الخامسة والعشرين بعد المائة)

☆
دكتور حازم محمد احمد محفوظ

لا نعرف من بين أعلام الفكر والادب الاسلامى فى أمتنا ' من اولى قضايا المرا ة اهتماماً كبيراً مثلما فعل المفكر والأدب الاسلامى الكبير العلامة محمد اقبال ان المطلع على آثاره الأدبية . من دواوين ورسائل و محاضرات و حوارات و مقالات صحفية و غيرها . باللغة الاردية الاسلامية ' يتيقن من أنه كتب ما كتب و نظم ما نظم ' بعد دراسة متانية مستوعبة للمنزلة السامية للمراة فى الاسلام . تلك المنزلة التى لم تبلغها و نتلها فى أى دين سماوى أو مذهب غير الدين الحنيف . وبعد أن درس دراسة مستفيضة لحال المرأة فى الشرق الاسلامى ووقف على ماآلت اليه فى الغرب . خاصة فى أوربا التى أقام فيها سنوات و سنوات . انه استقى فكره المعتدل فى هذه القضية الهامة من الشرع الحنيف ' وأبدى تعاطفه مع آمال و طموحات المرا ة فى المجتمع الاسلامى • واظهر تأيده لمطالبهن التى لا تتعارض والدين القويم ' بل سعى فى جد بهدف بلوغ حقوقهن • ولسنا مبالغين اذ قلنا انه كان متحدثا باسم المرأة المسلمة فى كل زمان و مكان' مترجما لآ مالهن المستقبلية ' متطلعا لغد افضل فى ظل

☆ مدرس الأردية وآدابها كلية اللغات والترجمة . جامعة الازهر ' مصر

مجتمع يرتضى الشرع الحنيف • ولم نصادف عند غيره من أعلام عصره ممن درسوا فى أوربا . الا فيما ندر . موقفا مشرفا مؤيدا لقضايهن ' كما نراه عند العلامة اقبال ' المتحصن بحضارة الاسلام •

ان المتصفح لآثار اقبال الأدبية الأردية ' يتجلى له أن المرأة من أهم الموضوعات التى نالت جانبا واهتماما كبيرا فى فكره ' ويراه وقد تطرق الى كل قضاياها الهامة 'والتى ماتزال تشغل عقولهن حتى يومنا الحاضر ' انه تحدث فى قضايا : التعليم والعمل وحرية المراة والمساواة والحجاب والأمومة والزواج والميراث ' وغيرها من المسائل الهامة فى نظام المجتمع والاسرة فى الاسلام •

ففى كتابه القيم " تجديد التفكير الدينى فى الاسلام " تطرق فى حديثه عن الاسرة' للرد على شاعر تركى ممن تأثروا بحضارة الغرب ' فنادى بالمساواة بين الرجل والمراة' خاصة فى مسائل الطلاق والانفصال والمواريث • يقول اقبال : (١) "انى أخشى ان يبدو قليل العلم بقانون الاسرة فى الاسلام ' كما يظهر أنه لا يفهم المعنى الاقتصادى لقاعدة التوريث ' كما جاء ت فى القرآن • فالزواج فى اعتبار الشريعة الاسلامية عقد مدنى ' وللمراة ان تشترط عند الزواج أن تكون العصمة بيدها ' فتكتمل لها بهذا حق المساواة فى الطلاق • والاصلاح الذى يقترحه الشاعر لنظام التوريث يقوم على فهم خاطى • وينبغى الا يستنتج من اختلاف الانصباء الشرعية ' أن القاعدة تفترض تفوق الرجل على المرأة '

فمثل هذا الافتراض يكون منافيا للروح الاسلام ' اذ يقول القرآن : (ولهن مثل الذى عليهن) (٢)... والذى يعين نصيب الأبنة ليس أى نقص فيها ' وانما يتعين تبعاًلما لها من فرص اقتصادية ' ومن مكان فى بناء مجتمع هى جزء لا يتجزا فيه ... والبنت على حسب الشريعة تعتبر مالكة ملكا حرالما تعطاه عند عقد الزواج من أبيها أو زوجها على سواء ... ان عب ء النفاق على معيشتها فى حياتها كلها يقع على كاهل زوجها ' " •

وفى ديوانه "ضرب الكليم " يتوجه بالنصح الى المرأة المسلمة ' داعيا اياها الى معرفة حقوقها فى الاسلام كما ينبهها الى اليقظة كى لا تقع فى شباك الدعوات التى أخذ يرددها بعض أبناء الشرق متاثرين بمقولات لأ دباء وفلاسفة من الغرب ' فتفتن بدعوات التحرير والمساواة وما ينتج عنها من سفور واختلاط بالرجال ومشاركتهم فى كل اعمالهم ' مما يشاع فى مجتمع الغرب' يقول اقبال : (٣)

"اننى اعتقد فى يقين أن (حرية المراة) سُم يقدم على شاكلة نبات السُكر"

ويقول: (٤)

"ولتفشى بصيرة المرأة هذاالسر"

ومع هذالنداء نجد العلامة اقبال راغبا أن تتوجه المرأة لنيل كل جديد مفيد من حضارة الغرب ' مما لا يتعارض والشرع الحنيف وفى نفس الوقت يذكرها بما آلت اليه المراة فى الغرب ' كى لا تنساق وراء دعوات

باطلة • يقول اقبال :(٥)

• أنا ما شاهدت الفرق بين الرجل والمرأة (فى الغرب) ،

• ذلک جالس (فى الخلوة وتلک جالسة (فى الخلوة)

ويذكر "اقبال" المراة برسالتها الاولى ويشيدبها ، حيث يدعوها الى الاقبال على الزواج وانجاب وتربية جبل جديد ينماز بمقدرته على حمل الأمانة • ويرى هذا أهم رسالة للمراة فى المجتمع الاسلامى ، وما اعظمها من رسالة • انه يدعوها على الدوام الى الاطلاع على حقيقة رسالتها فى ضوء التعاليم الاسلامية • كما يوصى الرجال بمعرفة منزلة المرا ة السامية ، وأن عليهم فرض حمايتها واداء حقوقها وفى نفس الوقت يضع أمام المرا ة فى الشرق ، ماآلت اليه المرأ ة فى الغرب • انها تخلت عن رسالتها الاساسية ، فلم تقبل على الزواج وانجاب الاطفال . فى الاغلب . وانساقت وراء دعوات هدامة ، نتج عنها فساد حل فى مجتمع الغرب •

يقول اقبال : (٦)

• هل هذا هو سمو المجتمع (لدى الغرب) ،

• فالرجل بلا عمل ، والمراة خالية الحضن (من الاطفال)

ويقول : (٧)

• اذا كانت حضارة العرب (تعنى) موت الامومة ،

• فنتيجتها ، الموت للانسان •

ولا يمكن أن يفسر موقف "اقبال" من المراة الغربية على أنه عدواًلها ' بل أراد أن تحيا فى عفة و كرامة ' لانها فى فطرتها كذلك • انه يرى ان ما آلت اليه فى مجتمع الغرب' يعود الى الرجل عندهم ' الذى لم يقد المرأ ة فيعرف منزلتها السامية • انها ليست سلعة تبا ع وتشترى من اجل متعة زائلة • يقول اقبال: (٨)

• **اننى فى حزن دفين على ظلم النساء (فى الغرب)**

ويقول : (٩)

• **فى هذا الفاد (المستشرى) ليس هناك ذنب من قبل المرأة**

• **حتى القمر والنجم يشهدان على عفتها •**

• **فظهور الفساد فى مجتمع الغرب '**

• **يعود الى أن الرجل عندهم أبلة لا يعرف مكانة المرأة•**

ويؤكد "اقبال" منزلة المرأ ة السامية فى فكره ' بتخصيص قسما بأكمله فى ديوانه "

ضرب الكليم " جعل عنوانه "المرأة " ' وفيه سما بمنزلتها فوق نجم الثريا ' وأكد على أن كل الجمال فى الكون بسبب منها ' بل الحياة كلها نتبض من نغمتها • يقول: (١٠)

• **ان صور جميع الكائنات ملونة بسبب من وجود المراة '**

• **وقلب الحياة (ينبض) بسبب من نغمتها •**

• وحفنة ترابها أكثر سموا من نجم الثريا

• وكل شرف وغزة در مكنون فى المرأة •

ثم نراه يشير الى المراة فى حياته الخاصة ، ويبين أن لها أثر أكبيراً فى فلسفته ومؤلفاته ومكانته التى بلغها عن جدارة • يقول : (١١)

• ان وجود المرأة مشجع على شغف الابتكار ،

• وأسرار الحياة تنكشف فى دوام بسبب منها •

ويرد الفضل الأول الى أمه التى شجعته على الانكباب فى طلب العلم والاستزادة منه • يقول فى قصيدته : " ذكرى الأم " ضمن ديوانه الأردى " رنين الجرس " : (١٢)

جعلتنى الأم فى ركب الزمان ذكرتنى ما الذى بالأمس كان

ربيتنى وأنا طفل صغير ذكرتنى وأنا ذلك الغرير

فلى العقل ولى رأى سديد وبما انجزت انى لسعيد

بك أنت صرت نجماً فى السماء أسرة الأسلاف تحظى بالسناء

بحبى لك دهرى قد نعمت وعلى رد الجميل قد عجزت

لك يا أمى حياة من ضياء ورحيل ما لبدر عن سماء

وحينما شارك "اقبال" فى مؤتمر المائدة المستديرة ، الذى انعقد فى لندن عام ١٩٣١ ، لبحث مستقبل شبه القارة الهندية بعد زوال الاحتلال الانجليزى ، انتهز هذه الفرصة وكتب مقالة بالانجليزية عنوانها

"النساء" ، نشرت في العديد من الصحف اللندنية ، وفيها أشار الى مكانة المرأة ومفهوم الشرق والغرب في قضايا الحرمة والمساواة ، كما تحدث عن الحجاب واصفاأياه بأنه علامة الوقار والا حترام ، وليس فيه ما يقلل من شخصية المرأة ومكانتها أو يعوق عملها • كما اشار الى تعدد الزوجات في المجتمع الاسلامي وحكمته ، ورد على من ينكرون ويخالفون ذلك في الغرب • (١٣)

هذا ولفت فكر "اقبال" المستنير في قضايا المراة في الشرق والغرب ، بعض اديبات الغرب من اساتذة الجامعات ، فتأثرن به وأقدمن على نقل بعض تراثه . المنثور والمنظوم . الى لغات اوربية • ومن هؤلاء نذكر المستشرقة البرفسور آنامارى شيميل Annemarie Schimmel التي نقلب ديوان جاويد نامه الى الألمانية ، وصدرت هذه الترجمة في ميونيخ عام ١٩٥٦ • (١٤) والمستشرقة الدكتورة ايفا ما يروفينش Eva Meyerovitch التي نقلت الى الفرنسية رسالة الدكتوراة التي تقدم بها "اقبال" الى جامعة ميونيخ بالمانيا عام ١٩٠٥• وهذه الترجمة هي التي اعتمد عليها الدكتور حسين مجيب المصرى في نقل الرسالة المذكورة الى العربية ، وصدرت تحت عنوان : "ماوراء الطبيعة في ايران" • (١٥) ثم نقلت ديوان جاويد نامه الى الفرنسية ، ونشرت ترجمتها في باريس عام ١٩٦٢ • (١٦) واعتنقت الاسلام بعد ترجمة هذا الديوان • (١٧)

أنـــت لـــلأمة عـنـوان الشـــرف وبهـــــذا فثـــــراك قـــد هتف

نـلت هذا أنت حوراء الصحارى فـجـعـلـت الـسـقـى لـكـن بالفخار

فـى ثـراك قـد رقدت يا شهيدة وبـــذرات الثـــرى روح جـــديـد ة

واذ التـفـتـنـافـى عـجـالة الى شعر اقبال الفارسى ' نراه يوصى الفتاة الـمـسـلـمة بان تحتذى بنماذج من عهد النبوة أمثال السيدة فاطمة الزهراء والسيـدة فـاطـمة بـنـت الـخـطـاب • (٢٠) كما يضع نصب عينيها حياة الأميـرة الهندية المسلمة "شرف النساء" التى تعلقت بالقرآن الكريم أشد تعلق ' وأوصت بأن يوضع معها فى قبرها ' مصحفها و سفها • (٢١)

وهـا فـكـر اقبـال فـى الـمـرأة ' يأثر فى أديبات الشرق ' فنجد عطية فيضى الهندية . المعاصرة لاقبال وقد جمعت بينهما علاقات متميزة تقول : (٢٢)

"حيـنـمـا نـعـقد الموازنة بين العلامة اقبال وغيره من الكتاب ' نجد اقبال ينماز عنهم بشخصية أدبية اسلامية نادرة • انه استقى فكره المعتدل فى كتاباته ' من تعاليم القرآن الكريم • "

وحيـنما توفى " اقبال " رثتـه أديبة الأردية السيدة " بشيـر النساء " ' مؤرخة لعام رحيله بقولها: (٢٣) **" لا مجد للأمة بدون اقبال " •**

ولـعـل خيـر مـا نـختتـم بـه مقالنا المتواضع ' الاشارة الى اننا لم نجد "لاقبال " مـنـظومات اوأبيات تغزل فيها على الكيفية التى تشاهد عند الغالبية الـعـظـمى من الشعراء تلك الصورة التى لا تسمو بانسانية المرأة ' بل سخر

منظوماته وأقواله وكتاباته النثرية فى المرأة لبعثها و نهضتها من جديد • وصدى استاذنا الدكتور حسيب مجيب المصرى حين انشد قائلا: (٢٤)

فصيح أنت يالك من فصيح لذاك اخترت فن القول شعرا
ولا ما قلت فى وجه مليح ولا داعبت مثل المسك شعرا
سئمت حديث هجر أوتلاق وما أرويت للمحبوب ثغرا
كرهت شكاة وجد واشتياق وأخمدت الصبابة فيك جمرا
وضيت الشعر لكن فى نطاق به حققت للانسان خيرا

ان اقبالًا كان . وما يزال . مترجما لحضارة الاسلام الخالدة ' فيما يتعلق بالقضايا المعاصرة ' وفى طليعتها قضايا المرأة • ولسنا مبالغين فى قولنا : " انه شاعر الاسلام الذى تغنى بحضارته الخالدة •

تحية الى روحه الطاهرة فى ذكراه الخامسة والعشرين بعد المائة

المصادر و المراجع و الحواشي و التعليقات

١۔ محمد اقبال ' تجديد التفكير الديني في الاسلام ' ترجمه الى العربية : عباس محمود ' ط ٢ ' دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع ' القاهرة ' ١٤٢١ھ / ٢٠٠٠ م ' ص ١٩٩ : ٢٠١.

٢۔ البقرة ' آية رقم (٢٢٨)۔

٣۔ محمد اقبال ' كليات اقبال اردو (ضرب كليم) ' ط ٣ ' اقبال اكادمي باكستان ' لاهور ١٩٩٥م ' ص ٦٠٧.

٤۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٧۔

٥۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٥۔

٦۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٥۔

٧۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٨۔

٨۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٩۔

٩۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٤۔

١٠۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٦۔

١١۔ محمد اقبال ' كلياتِ اقبال اردو (ضرب كليم) ' ص ٦٠٩۔

١٢۔ محمد اقبال ' المجموعة الشعرية الأردية الكاملة (بدائع العلامة اقبال في شعرة الاردى) ' ترجمها نثرا عن الشعر الردى : حازم محمد احمد محفوظ (دكتور) ' نقلها الى الشعر العربى : حسين مجيب المصرى (دكتور) ' ص ١٥٧ ' ١٥٨ ' ١٦١ (تحت الاصدار) ۔

١٣۔ للتفصيل انظر : محمد اقبال ' طبقهء نسوان ' مقال مستخرج من مجلة مهک (الاردية) في عددها الخاص الصادر بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد اقبال ' ص ٧: الى ٩ ۔

١٤۔ محمد السعيد جمال الدين (دكتور) ' رسالة الخلود أو جاويد نامه للشاعر والمفكر الاسلامى الكبير محمد اقبال ' ط ١ ' مؤسسة سجل العرب ' القاهرة ' ١٩٧٤م ' ص ١٩

١٥۔ حديث عبر الهاتف مع أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصرى ' في مساء يوم الاثنين ٢٦ وللتفصيل راجع : حسين مجيب المصرى (دكتور) ' ماوراء الطبيعة في ايران لشاعر باكستان الاكبر محمد اقبال ' ط ١ ' مكتبة الانجلو المصرية ' القاهرة ' ١٩٨٧م ' ص ٤٧.

١٦. محمد السعيد جمال الدين (دكتور)، رسالة الخلود او جاويد نامه للشاعر والمفكر الاسلامى الكبير محمد اقبال، ص ١٩.

١٧. حازم محمد احمد محفوظ (دكتور)، محمد اقبال المصلح الفيلسوف الشاعر الاسلامى الكبير، ط ١، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ٥٨.

١٨. حسين مجيب المصرى (دكتور)، المرأة فى شعر اقبال، بحث مستخرج من مجلة اقباليات العربية، فى عددها الأول الصادر فى أكاديمية اقبال الباكستانية، عام ١٩٩٢م، لاهور، ص ١٩٣.

١٩. محمد اقبال، المجموعة الشعرية الأردية الكاملة (بدائع العلامة اقبال فى شعره الأردى)، ص ١٤٨، ١٤٩.

٢٠. حسين مجيب المصرى (دكتور)، اقبال والعالم العربى، ط ١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٢٠.

٢١. للتفصيل انظر: حسين مجيب المصرى (دكتور)، المراة فى شعر اقبال، ص ٩٣: ٩٦. حسين مجيب المصرى (دكتور)، فى السماء، ط ١، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٤٢: ٢٤٤.
محمد السعيد جمال الدين (دكتور)، رسالة الخلودأو جاويد نامه للشاعر والمفكر الاسلامى الكبير محمد اقبال، ص ٢٦٨: ٢٧٠.

٢٢. مجلة مهک (الأردية)، ص ٤٠٤.

٢٣. مجلة مهک (الأردية)، ص ٣١٢.

٢٤. حسين مجيب المصرى (دكتور)، شوق وذكرى، ط ١، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١م، ص ١٧٦، ١٨٨.